سلاطين مملكة تلمسان الزيانية في مواجهة الإخوة بربروس 1517-1546

د. بن عتو بلبروات*

تمهيد: في مطلع القرن السادس عشر أضحى المغرب الأوسط الممزق إلى جمهوريات وإمارات صغيرة متناثرة ومتنافرة، يعيش مخاضا عسيرا، دام سنوات، ليلد لنا حكومة مركزية عاصمتها مدينة الجزائر، ويشرف عليها الأتراك العثمانيون الذين بشأنهم انقسمت المملكة التلمسانية الزيانية المتضعضعة إلى ثلاثة صفوف، الأول يعاديهم ويستعين بأعدائهم، مثل السلطان أبو حمو الثالث الزياني وأنصاره من قبائل المنطقة الغربية في التل ومشارف الصحراء، والثاني يساندهم ويناصرهم مثل عدد من أعيان تلمسان وكثير من الكادحين، والثالث يتأرجح بين المناصرة والعداوة مثل أشقاء أبي حمو الثالث المذكور والذين حكموا بعده بالتتابع (السلطان المسعود والسلطان عبد الله).

وبهذا الصدد ارتأينا أن نستعرض بعض تفاصيل الصراع الذي قام بين بعض سلاطين تلمسان الزيانيين وقادة الترك في الجزائر وعلى رأسهم الإخوة[1] بربروس[2] في النصف الأول من القرن السادس عشر، وهو صراع لا يزال يكتنفه الغموض أمام تضارب الأطروحات التاريخية بين المصادر التركية والعربية وبين دراسات المستشرقين الفرنسيين. وعليه سنسلط الضوء على أبرز محطات الصراع التلمساني -التركي ودور القوى الأجنبية في تأجيجه في عهد السلطان أبو حمو الثالث المتوفي سنة 1528، وبعده السلطان مسعود والسلطان عبد الله.

1-الصراع بين أبي حمو الثالث الزياني والإخوة بربروس 1517-1528: يرجع تاريخ الصراع التركي -الزياني إلى أول مبادرة للتلمسانيين في إظهار تأييدهم لمشروع الإخوة بربروس في الجزائر سنة 1517 حيث استغل ممثلوهم فرصة انتصار عروج[3] على أمير تنس المسمى بحميد العبد نسبة إلى شدة سمرته والذي عرف بعمالته للاسبان، وانضمام سكان منطقة المتيجة

* - أستاذ محاضر أ في التاريخ الحديث- قسم التاريخ- جامعة الجيلالي ليابس (سيدي بلعباس).

ومليانة والمدية والشلف وجزء من جبال الظهرة والونشريس إلى جيش الترك، فقصدوا مقر إقامته ببلدة تنس وعرضوا عليه التدخل في تلمسان لتحرير غالبية ساكنيها من ملكهم الزياني أبو حمو الثالث الذي أظهر ولاءه للاسبان المحتلين لوهران والمرسى الكبير من خلال قبوله لمعاهدة الحماية الاسبانية على تلمسان سنة 1512م وما تتضمنه من شروط أبرزها دفع الجزية للاسبان سنويا والمقدرة بإثني عشر ألف دوكة وعدد من الخيول، ثم إطلاق سراح الملك الشرعي مولاي أبو زيان وإعادته للعرش الزياني.

وجد أبو حمو الثالث نفسه أمام قوة عسكرية تركية غازية تسندها قوة شعبية تلمسانية فقرر الهرب ومعه محتويات الخزينة المالية، وجنيها تمكن عروج من دخول تلمسان دون مقاومة تذكر. وأولى الإجراءات التي اعتمدها عروج بتلمسان هي: تنصيب نفسه على عرش بني زيان أمام هتافات السكان[4]، والإفراج عن الأميرين الأخوين للملك أبي حمو الثالث الفار، وهما مولاي عبد الله ومولاي المسعود اللذان توجها إلى فاس، كما لم يغفل تسريح كل المساجين.

رأى أبو حمو الثالث أن مناصريه من المقاتلين لا يمكنهم استعادة عرشه بتلمسان إلا بمساعدة قوة خارجية، وفضل أن تكون أولا المملكة المغربية، فلجأ في سبيل ذلك إلى فاس وحل على سلطانها المريني، راجيا منه حمايته ومده بالعون للجلوس على عرش آبائه بني زيان التزاما بعلاقات الود والتضامن بين ملوك فاس المرينيين وسلاطين تلمسان الزيانيين في وقت الأزمات عبر التاريخ[5].

والملفت للانتباه في هذا الصدد أن عروج أقدم على إعدام مولاي أبو زيان –الملك الشرعي المحرر– ونحو سبعين فردا من حاشيته ومن العائلات الزيانية وأكثر من ألف من أهل البلد حسب رواية الناصري أبو راس، ولا تزال هذه الحادثة المروعة محل استفهام، لكن الأستاذ أحمد توفيق المدني يرجع سبب ذلك إلى تجدد الفتن[6] في تلمسان، ولعله وجد الملك الزياني وحاشيته وراء ذلك مثلما فعل سليم التومي أمير مدينة الجزائر.

ولما كانت ضواحي قلعة بني راشد المحصنة طبيعيا، ذات أهمية زراعية، فقد ركز الاسبان الذين بوهران على استغلال كل ما تنتجه تربتها الخصبة وبالأخص الحبوب، حيث فرضوا على ساكنيها نقل موادهم إلى وهران، وهو ما أثار حفيظة عروج بتلمسان فهدد بمعاقبة كل من مارس التجارة مع الاسبان وموّنهم بما يحتاجونه.

استغل أبو حمو الثالث هذه الحادثة فتقرب من الاسبان طالبا منهم المساعدة لاعتلاء كرسي العرش بتلمسان، فكتب رسالة إلى حاكم وهران العسكري، ذكر له فيها أن منذ سقوطه من على عرش تلمسان وصعود الأتراك العثمانيين، تراجع نفوذ الاسبان بالمنطقة، والدليل على ذلك انقطاع التموين الغذائي لقلعة بني راشد وما جاورها. لكن في ظل التحالف بين الطرفين ضد عروج ومساعدة الاسبان للملك المخلوع، بالعساكر والمال، سيكون الاسبان دوما بعيدون عن القحط والمجاعة. يجب على الاسبان أن يحددوا عواقب تصاعد قوة عروج ويختاروا أفضل السبل لايقافه وإلا سيصيرون ضحايا لتفريطهم، وحينئذ يكون ضياع القلعة التي يسيطرون عليها، هي أهون الأضرار التي تنتظرهم[7].

جاءت الموافقة الاسبانية بشأن التعاون العسكري مع الملك المخلوع "أبو حمو الثالث" ومناصريه ضد العدو التركي العثماني المشترك، وتلبية مطالبه العسكرية والمالية وكل ما يراه ضروريا لقهر عروج شريطة التحضير الفوري لهجوم ضد عروج وجيشه. وكان لرسالة الحاكم الاسباني لوهران وقع على نفسية الملك المخلوع فطلب منه أن يمده بالمال لجمع جيش من القبائل الجزائرية لاسترداد تلمسان من الأتراك العثمانيين ووعدهم بترويدهم بالمواشي والحبوب والخضر وجميع المستلزمات، حالما يفتك منهم، المناطق التي خضعت لهم.

صدر الرد الاسباني بشكل فوري متضمنا، تزويد أبوحمو الثالث بسبعة آلاف دوكة Ducats مقابل ستين رهينة من أبناء شيوخ القبائل العربية كضمان لوفاء السلطان للاتفاق المبرم بين الطرفين. وفعلا جمع الملك الزياني المخلوع خمسة عشر ألف فارس وأرسل الاسبان من وهران سبعة آلاف وخمسمائة جندي من المشاة[8].

لما علم خير الدين بتحركات الاسبان والملك الزياني المخلوع ضد عروج، أرسل فرق عسكرية تركية إلى قلعة بني راشد بقيادة شقيقه اسحاق بربروس، وعند بلوغهم مشارف القلعة وجدوها محاصرة من طرف الاسبان وأعوانهم، فقرر اسحاق منازلتهم فأسفر ذلك عن انتصار الطرف التركي العثماني الذي قتل ستمائة اسباني في ساحة المعركة، وأسر ثلاثمائة منهم ثم دخلوا القلعة وتحصنوا بها.

حاصر السلطان الزياني أبو حمو الثالث، قلعة بني راشد بجيشه المتكون من العرب والاسبان، من جوانبها وجرت مناوشات عسكرية بين العساكر الأتراك والجيش العربي-

الاسباني، وبعد أيام قلائل اقترح الأتراك العثمانيون بقيادة إسحاق بربروس، العمل على إيجاد منفذ للنجاة من الحصار، لكن لم يفلح ذلك حيث نبه جواسيس بالقلعة، سلطان تلمسان المخلوع، بتشديد الحراسة على المخارج. أما الاسبان فقد صوبوا أحد البطاريات نحو المنفذ المقرر للهروب، وشرعوا في قصفه بعدة رميات مدفعية مما أودى بحياة العديد من الأتراك العثمانيين، وقلة منهم، عادوا إلى القلعة وصمدوا لمدة ستة أشهر[9].

في غضون هذه الفترة حاول المحاصرون اختراق سور القلعة وحصونها بواسطة الألغام، لكنهم واجهوا مقاومة عنيفة من طرف الترك، مما جعل جيش أبي حمو الثالث الزياني يصر على مواصلة الحصار والقتال ولو كلفه ذلك ست سنوات. وأمام هذا الإصرار الزياني-الاسباني على افتكاك قلعة بني راشد من الأتراك العثمانيين، أعلن اسحاق بربروس وجماعته عن مغادرتهم للقلعة مصطحبين أسلحتهم ومستلزماتهم، وفي المقابل أجبرهم المحاصرون على تحرير الأسرى المسيحيين، وتقديم ستة عشر رهينة من كبار الضباط الأتراك.

تم الاتفاق على هذا الشرط وخرجت الحامية التركية من القلعة لكن باغتتها قوات الزياني والاسبان ونقضت عهد الأمان وجرى قتال بين الطرفين وكانت المحصلة، مقتل جميع العساكر الأتراك العثمانيين بما فيهم القائد اسحاق.

سيطر أبو حمو الثالث الزياني على قلعة بني راشد، وشرع في إنجاز أهم الأعمال التي تتطلبها القلعة، وأقام بها حامية عسكرية قوية، ثم توجه إلى مدينة تلمسان وحاصرها مدة ستة وعشرين يوما حتى شعر عروج بربروس بحلول القحط، وقيل أن سكان المدينة ثاروا ضده[10]، فقرر الابتعاد عن الأعداء، فخرج من تلمسان وبصحبته صناديق، من الذهب والفضة، كانت مودعة بالخزينة المالية حتى لا يستولي عليها أعداءه.

طارد الاسبان عروج بربروس وجنوده مستعملين خيل بني موسى ولم تنطل عليهم خدعة القطع الذهبية التي رماها عروج على الأرض لإلهائهم عن ملاحقته، وعندما لم يجد سبيلا للنجاة قرر عروج مواجهة المطاردين الاسبان فأصيب في بداية القتال بطلقة نارية أودت بحياته وهو لم يتجاوز الخمسة والأربعين من عمره، ولم يسلم أحد من جنوده البواسل[11]. وكان ذلك في يوم عيد الفطر من سنة 935هـ/ شتاء 1518.

غير أن المؤرخين لا يتفقون على مكان استشهاده، فنصادف أنه قتل قرب واد المالح أو في جبل بني موسى غرب تلمسان قرب نهر وجدة على الحدود الجزائرية المغربية، أو في جبل بني يزناسن[12].

تأثر خير الدين بوفاة شقيقيه عروج واسحاق وجنودهما، فانتظر فصل الربيع ليغزو الغرب الجزائري بجيش يتكون من ستمائة تركي وعشرون ألف فارس عربي، قصد إعادة إخضاع سكانه. ولما تحقق له ذلك قرر العودة إلى مدينة الجزائر وأوصى أنصاره من سكان المقاطعة الغربية بتجنب مقاومة سلطان تلمسان "أبو حمو الثالث" عندما يغزو أراضيهم بل عليهم إظهار ولائهم لسلطانه اتقاء للضرر إلى أن يحين موعد الانتقام منه ومن أسياده الاسبان.

وعليه لم يتأخر أبو حمو الثالث الزياني في غزو المناطق الغربية الخاضعة للأتراك العثمانيين، مدنا وأريافا حتى وصل إلى ضواحي مدينة الجزائر في حين أرست سفن اسبانية قرب المدينة وجرى القتال بين الأتراك العثمانيين والاسبان وبعد أن تبين للسلطان الزياني، هزيمة حلفائه الاسبان، عاد أدراجه إلى مدينة تلمسان[13]، وكان ذلك في سنة 1520م.

وفي أعقاب ذلك بدأت تتصاعد قوة خير الدين بربروس، فقد نجح في إلحاق الجزائر بالباب العالي ومنحه السلطان العثماني لقب بايلرباي (باي البايات أو أمير الأمراء) وشرع في إعادة تحصين مدينة الجزائر وميناءها مما أثار قلق سلطان تونس الذي هرع إلى مكاتبة سلطان تلمسان "أبو حمو الزياني" قائلا له فيها: "أن الأتراك المتمركزون بمدينة الجزائر، يتميزون بالطموح إلى فرض سيطرتهم على ممتلكات جيرانهم من الحفصيين بتونس والزيانيين بتلمسان، وإذا تركنا المجال مفتوحا أمام خير الدين لتقوية مركزه فإننا سنفقد مستقبلا، مناطق حكمنا. وعليه أدعوك إلى اتخاذ التدابير اللازمة ما دام هناك متسعا من الوقت. ولكن في علمك أن مصدر نموه العسكري والسياسي بالجزائر هي تلك المداخيل الناتجة عن القرصنة البحرية الممارسة في عرض الحوض الغربي للبحر المتوسط، والدعم المادي الذي يقدمه له السلطان العثماني. وبالتالي فلا مناص من أن يكون هدفه هو إزاحة الحفصيين والزيانيين من عرشيهما، مما يفرض علينا العمل سويا لاختراق هذه الامبراطورية الناشئة، ولعل أولى الإجراءات التي نتخذها هي استمالة شخصيتين عسكريتين مواليتين لخير الدين تتقاسمان مناطق نفوذ الأتراك العثمانيين بالبلاد، أحدهما في مقاطعة الشرق وهو أحمد بن القاضي والآخر في مقاطعة الغرب وهو محمد بن علي، فعليك

كسلطان لمملكة تلمسان أن تظفر بمحمد بن علي، ولما ننجح في إثارة الانقسام بين الرجلين من جهة وخير الدين من جهة أخرى، تبقى أمامنا تدابير أخرى سهلة الإنجاز"[14].

كانت هذه الرسالة قوية في تحريك أحقاد سلطان تلمسان "أبو حمو الثالث" ضد خير الدين بربروس، حيث يعلم أن هذا الأخير، يكن له هو الآخر،حقدا ويتعجل الانتقام منه ما دام هو المتسبب في قتل أخويه عروج واسحاق، ناهيك عن مساندته للاسبان في غزو مدينة الجزائر. لقد رأى أبو حمو الثالث أنه من الضروري الاستجابة لنصيحة سلطان تونس وتجنب التريث وإضاعة الوقت بغية الحفاظ على حياته وعرشه.

سارع سلطان تلمسان إلى مكاتبة محمد بن علي قائلا له:" أنه بلغني من أطراف موثوقة بأن خير الدين عازم على تجريدك من مهامك كقائد للمقاطعة الغربية، فالعربي في نظره، كائن بخس، وقد عول عليك لما كان فاقدا للقوة، أما الآن فيمكنه الاعتماد على الدعم العثماني، وهو يعتقد أن مكانتك تليق بشخصية تركية. وإذا كنت تثق في شخصي فاسمع نصائحي واستعد إلى أن تتبعني وتحارب إلى جانبي، وهذا هو السبيل الوحيد لحماية نفسك من المهالك التي تنتظرك، وإذا ظللت وفيا لخير الدين فلا تفكر في اللجوء إلى بلاطي، فما عليك إلا التفكير في نصيحتي التي تملي عليك الحذر"[15].

وبالموازاة بدأ سلطان تلمسان "أبو حمو الثالث" في تعبئة القبائل العربية، طالبا منهم غزو المناطق الخاضعة لخير الدين في المقاطعة الغربية للايالة، فقابلها البايلرباي خير الدين بربروس بحزم، حيث نجح في إخضاع المناطق الثائرة ضده وفرض على أعدائه التراجع عن أراضي ايالته، وبالتالي فشل سلطان تلمسان في مسعاه مثله مثل سلطان تونس الذي لم يوفق في استمالة القائد أحمد بن القاضي[16]، أما محمد بن علي فيقال أن شارك في الحرب وكان مصيره الهلاك[17].

وجد سلطان تلمسان "أبو حمو الثالث" نفسه في مأزق سياسي، فقرر استقدام أخويه "عبد الله والمسعود" من فاس قصد مساعدته، فبعث كتابا إلى السلطان المغربي طالبا منه تسريحهما إلى تلمسان، لكن لم يستجب سلطان المغرب خشية التنكيل بهما، فجدد سلطان تلمسان الطلب وكتب له عهدا بالأمان وأنه لا يبغي سوى إصلاح أخطاء الماضي مع أخويه ومعاملتهما معاملة أخوية. وعندها لم يكن بوسع سلطان فاس المريني إلا دعوة الأخوين إلى مجلسه وإعلامهما بكتاب

سلطان تلمسان وخيرهما بين الانتقال إلى تلمسان أو البقاء بفاس مبديا لهما رغبته وواجبه في معاملتهما معاملة أبوية.

قرر الأخوين الانتقال إلى تلمسان نزولا عند رغبة شقيقهما السلطان " أبو حمو الثالث" مصحوبين برفقة من شيوخ العرب، ولما بلغا أراضي تلمسان تشاورا فيما بينهما ولم يتمكنا من احتواء قلقهما حيال نوايا شقيقهما السلطان، فعوض النزول بمدينة تلمسان، افترق الأخوان، أحدهما (الأمير عبد الله) اتجه إلى وهران حيث الاسبان والآخر (الأمير المسعود) إلى ايالة خير الدين بربروس، حيث نزل على أحد شيوخ العرب قرب مدينة الجزائر.

2-الصراع بين المسعود وخير الدين 1528-1529: خطط الأمير المسعود للإطاحة بشقيقه، سلطان تلمسان "أبو حمو الثالث" حيث كتب لخير الدين طالبا منه حمايته ومده بالدعم العسكري للاستيلاء على مملكة تلمسان. وقد اعتبر خير الدين هذا المسعى فرصة للانتقام من سلطان تلمسان، فدعا شيوخ العرب في كافة أنحاء البلاد إلى التقرب منه لتعيين " المسعود" على كرسي عرش تلمسان[18].

رحبت العديد من القبائل الجزائرية باقتراح خير الدين بربروس، فقدمت عشرون ألف فارس لمساعدة الأمير "المسعود"، كما انضم إليهم خير الدين بقوة تركية تتكون من المشاة، وتوجه الجيش العربي- التركي بقيادة المسعود نحو تلمسان. ولم يجرؤ سلطان تلمسان " أبو حمو" على مجابهة هذه القوة الغازية، ففضل الفرار من مدينة تلمسان، تاركا العرش الزياني للأمير المسعود الذي صار حينئذ سلطانا لمملكة تلمسان تحت حماية خير الدين بربروس حسبما وعد به. لكن بعد انصراف الفرق العسكرية التركية إلى مدينة الجزائر، سارع السلطان المسعود إلى زعزعة القيود التركية من خلال عقده اتفاق عسكري هجومي ودفاعي بينه وبين حاكم وهران الاسباني ضد أتراك الجزائر.

استاء خير الدين من تطور موقف سلطان تلمسان "المسعود" حيال الأتراك العثمانيين، فكاتبه يهدده بالعدول عن تعاونه مع الاسبان وإلا سيكون عبرة لمن تسول له نفسه بالمساس بقيم الإسلام وأمن البلاد، وفي الوقت ذاته أمر بجمع العساكر لغزو تلمسان وإسقاط سلطانها[19].

وفي سياق ذلك برز "الأمير عبد الله" المقيم بوهران، على الساحة السياسية حيث كلف أحد أعوانه بزيارة شيخ صوفي يحظى باحترام وتقدير خير الدين بربروس طالبا منه أن يتوسط له

عنده لمساعدته على اعتلاء كرسي عرش تلمسان محل شقيقه " المسعود" المناوئ له، ويتعهد لـه أن يحكم تحت أوامره.

وافق خير الدين على طلب الأمير عبد الله احتراما للشيخ الصوفي، واشـترط عليـه أن يزور مدينة الجزائر لبحث الترتيبات الكفيلة بتنصيبه ملكا على تلمسان إلا أن عبـد الله قـد رأى شقيقه المسعود يراقب تحركاته، فطلب منه أن يسيطر على مدينة مـستغانم حـتى يـتمكن مـن الانتقال إليها ومنها إلى مدينة الجزائر، وهو ما حدث فعلا[20].

وبعد السيطرة على مدينة مستغانم توجه جيش خير الدين إلى قلعة بني راشد وتمكن مـن الاستيلاء عليها بعد مقاومة ضعيفة، ومنها إلى تلمسان التي حاصرتها القوات الموالية لخـير الـدين لمدة عشرين يوما دون تحقيق نتيجة بفعل غياب المدفعية وحصانة مدينة تلمسان. وفي نهاية المطـاف لجأ المحاصرون إلى خدعة حربية مفادها أنهم أوهموا جيش المسعود بالانسحاب وترك أخبيتـهم ممـا جر جيش تلمسان وملكهم إلى الخروج والسعي إلى تحصيل الغنائم المتروكة وتتبـع أثـر الجـيش الغازي، وحينها ظهر جيش الترك والعرب فجأة وانقض عليهم. وإذا تمكن الملـك مـسعود مـن العودة إلى داخل المدينة رفقة جيشه، فإنه شعر بالهزيمة وخيبة الأمل مما حفز عـددا مـن عـساكر تلمسان إلى مبايعة خير الدين –وقد سبق لهم أن بايعوا عروج قبله–، وأشاروا على قائـد الحملـة بثغرات تلمسان التي تسمح له بالدخول إليها عبر سلالم، نصبت لعساكره.

بدأ التسلل إلى مدينة تلمسان ليلا على الساعة الثالثة، وتوزعت الفرق العـسكرية علـى الأبواب والأسوار والمآذن وبدأت صفارات تقدم الجيش نحو أبواب المدينـة المفتوحـة، ثم اتجـه العساكر إلى القصر للقبض على السلطان " المسعود" لكنه فر رفقة مائة فارس باتجاه الصحراء.

فرح خير الدين بربروس بدخول جيشه مدينة تلمسان، فكتب لقائـد الحملـة يوصـيه بمبايعة الأمير عبد الله سلطانا على تلمسان وإلباسه القفطان الشرفي شريطة الالتزام بضرب عملـة تلمسان باسم السلطان سليم خان، وأن تدعو خطب الجمعة في جميع أنحـاء المملكـة التلمـسانية للسلطان العثماني. وقد وافق السلطان عبد الله على شروط خير الدين وطلب من قائد الحملـة أن يعين بتلمسان حامية عسكريةانكشارية يستعين بها في حالة قيام أنصار شـقيقه "المـسعود" بتمـرد داخل المدينة[21].

انطلقت ردة فعل المسعود ضد ملك تلمسان عبد الله من الصحراء حيث عقد الملك الهارب اتفاقا مع العديد من شيوخ القبائل العربية والبربرية المنتشرة بجنوب الغرب الجزائري، بغية محاصرة تلمسان وافتكاكها من عبد الله والأتراك العثمانيين على السواء. وقد اختار السلطان عبد الله الفرار من تلمسان إلا أن قائد الحامية التركية العثمانية فرض عليه الالتزام بقصره في انتظار النجدة من الجزائر العاصمة، وفعلا وصل إلى مشارف تلمسان حوالي خمسمائة مقاتل تركي الذين ألحقوا هزيمة نكراء بالقبائل المحاصرة للمدينة مما دفع بالمسعود إلى الهرب مجددا[22].

وفي المقابل قام السلطان عبد الله بتهنئة المقاتلين الأتراك العثمانيين وبعث لرؤساء القبائل المنتصرة للمسعود بإعلان ولائها له وللعثمانيين وكل من يستجيب لذلك، يكافأ بوسام الشرف. وبالنسبة لشقيقه المسعود الهارب، فكل من يقبض عليه ويسلمه حيا لبلاط تلمسان، تعفى قبيلته من الضرائب لمدة عشر سنوات، لكن كان السلطان عبد الله، يعلم جيدا أن إغراءاته ودعواته لا تلقى تجاوبا من قبل شيوخ القبائل العربية والبربرية بالغرب الجزائري، فراح بالموازاة يتتبع أخبار أحد رؤساء القبائل الذين تمتعوا بفضائل المسعود، لعله يكون ملاذه، وهو ما كان مؤكدا، فجهز قوة عسكرية من الفرسان وتمكنت من القبض على السلطان الهارب، وتسليمه لشقيقه مولاي عبد الله الذي زج به في زنزانة ضيقة، أما أتباعه فقد قطعت رؤوسهم، وبهذه الطريقة انتهت المعارضة السياسية ضد السلطان عبد الله وحينها قام بتسريح الجيش العثماني للعودة إلى الجزائر العاصمة[23]، وهنا نلاحظ مدى خطورة الصراع بين الإخوة الأمراء الزيانيين على عرش المملكة التلمسانية ودوره الكبير في تمهيد السبل للتدخل الخارجي مهما كانت طبيعته وجنسه.

3-الصراع بين عبد الله وخير الدين 1529-1546: في ظل تمرد أحمد بن القاضي وقارة حسن التركي اللذان كانا يتقاسمان مناطق النفوذ بالشرق الجزائري ضد خير الدين بربروس، وتصاعد خطر الاسبان ببجاية[24]، وانشغال خير الدين بقمع أعدائه المسلمين من جهة والنصارى من جهة أخرى وخوضه غمار القرصنة في مياه البحر المتوسط وغزوه لتونس، ومن ثمة غيابه عن الجزائر العاصمة بين سنتي 1529-1531، رأى سلطان تلمسان عبد الله أن الفرصة مواتية للتملص من وصاية الأتراك العثمانيين وتحديدا وصاية خير الدين على تلمسان، فأصدر الأوامر بأن تضرب عملة تلمسان باسمه وأن تدعو جوامع المملكة التلمسانية أثناء خطب الجمعة للسلطان الزياني مولاي عبد الله[25].

لما بلغ مسامعه أن خير الدين بربروس قد عاد إلى مدينة الجزائر، انتاب السلطان عبد الله القلق وأخذ يستعد لمواجهة هجمات خير الدين، وبعث بكتاب لشقيق أحمد بن القاضي يعرض عليه التحالف للانتقام من خير الدين الذي يسعى إلى الاستيلاء على ملك آبائهم والفتك بهم الواحد تلوى الآخر. ولما علم خير الدين بالأمر، راسل سلطان تلمسان عبد الله وحذره من عواقب تصرفاته وأمره أن يعيد خطب الجمعة وعملة تلمسان إلى ما كانت عليه سابقا، وأن يدفع ضريبة سنوية للجزائر العاصمة، قدرها عشرة آلاف دوكة قصد صرفها على الجيش الانكشاري -وهي ضريبة خفيفة مقارنة بالضريبة التي كان يدفعها الزيانيون للاسبان- وستون ألف دوكة أخرى كديون لمدى ست سنوات سابقة، ثم وعده بأن يعفو عنه ويدافع عن الأخطار التي تهدد مملكته إذا امتثل لشروطه ونفذها بشكل كامل وفي المقابل نبهه أن يتعظ من تجربة شقيقه المسعود ودعاه إلى أن يكون وفيا لاتفاقه مع الأتراك العثمانيين. وفي الوقت ذاته أوصى خير الدين رسوله إلى تلمسان أن يبين للسلطان عبد الله خطورة التحالف مع الاسبان المحتلين لوهران والمرسى الكبير باعتبارهم أعداء الإسلام وأن أقوالهم وصداقتهم لا تعدو أن تكون زائفة ويتوجب عليه أن يساعد خير الدين لدفعهم إلى بلدهم، وهذا يدل على أن خير الدين بربروس كان على علم بالمراسلات التي جرت بين سلطان تلمسان عبد الله، والملكة ايزابيل Isabelle-التي كانت تحكم اسبانيا نيابة عن شارلكان Charles-Quint- سنة 1531، ثم مع شارلكان نفسه سنة 1532، بوساطة اليهودي يعقوب أليجر Jacob Alegre كممثل لمولاي عبد الله، ونشرت الجمعية التاريخية الجزائرية بمجلتها الافريقية Revue Africaine سنة 1955 رسالتين لمولاي عبد الله، وكلاهما باللغة الاسبانية .

لم يحر السلطان عبد الله جوابا لخير الدين بربروس لكنه صرح لرسوله قائلا: " لا أتذكر أنني استلمت قرضا من سيدك، يجبرني على تسديده. وإذا يعتقد أن قواته كافية لمحاصرة مملكتي، فليفعل ذلك. إنني أحتفظ بممتلكات آبائي وأجدادي، ولم يكن الأتراك على الإطلاق، ورثة لحقوق بني زيان"[26].

وبعد مغادرة رسول خير الدين، مدينة تلمسان، دعا مولاي عبد الله مستشاريه ووزرائه وزعماء عائلة بني عبد الواد وذكر لهم أن صعوده على عرش تلمسان، كان شرعيا باعتباره من أحفاد يغمراسن بن زيان، وتساءل أمامهم عن السبب الذي يجعل خير الدين يفرض عليه دفع

اللزمة السنوية، ثم تطرق إلى أن خير الدين قد استولى على مدينة الجزائر وما جاورها بطرق وجدت مجراها داخل مجتمع مترهل، وهي جزء من مملكة تلمسان التي تصل حدودها إلى المسيلة.

ثم استطرد قائلا: "وهذا خير الدين المتوحش الذي صير مناطق نفوذه جحيما وآذى العرب، يريد الآن تجريدي من ميراث آبائي وتحويلكم أنتم آل عبد الواد إلى عبيد، وأسس مطامحه على بعض الخدمات التي قدمها لي في غضون النزاعات التي جرت بيني وبين أشقائي. صحيح أنه زودني بحامية عسكرية تركية ساعدتني لصعود العرش الزياني، ولم أكن يوما ناكرا لجميله، لكنني كافأت عساكره الذين قدموا لي النجدة، واعترافي بفضائله هو الذريعة التي جعلت خير الدين يسعى إلى تجريد بني زيان من ميراث آبائهم وأجدادهم". وفي نهاية حديثه قال لهم:" أطلب منكم أيها الأمراء والأعيان بمملكة تلمسان أن تعينوني بحكمتكم وترشدوني إلى ما يمكن فعله وأيهما أجنح إليه، الحرب أم السلم؟".

نهض أحد كبار عائلة بني عبد الواد وقال أمام الحضور:" لا يحتاج سلطان تلمسان إلى مشورتنا، فهو الذي يمكنه أن يقرر الحرب أو السلام، وفي جميع الأحوال سنكون الرعية الوفية لولي أمرها، وسنقدم له موجبات تلاحمنا"[27].

قرر السلطان عبد الله خيار الحرب فجمع جيشه وأمر بالاستعداد لمهاجمة خير الدين بربروس، وفي خضم التحضير للحملة، انتاب الابن الأكبر للسلطان عبد الله قلقا بشأن عواقب محاربة الأتراك العثمانيين، فاختار اللجوء إلى بلاط خير الدين بالجزائر العاصمة، فلقي ترحابا من لدنه وأسكنه منزلا أنيقا وسخر له عددا من الإماء والعبيد، وأجرى له جراية، وحول هذه النقطة يرى المستشرقون الفرنسيون أن هذا الابن للسلطان عبد الله هو الأمير محمد، الذي سبق وأن ثار ضد والده بتلمسان وطلب الدعم الاسباني لكنه لم ينل سوى الوعود، فكان مصيره الحبس لأنه كان من مصلحة الاسبان توثيق الروابط مع عبد الله للتصدي لخطر الأتراك العثمانيين، الأمر الذي جعل الأمير محمد يلجأ إلى خير الدين بمدينة الجزائر ثم يستخدم في محاربة أبيه عبد الله ويحاصره بتلمسان ثم يجلس على كرسي العرش بمساعدة خير الدين بربروس، وهذا ما يتناقض مع كتابات سنان شاوش كمصدر تركي.

وعليه نلاحظ أن العائلة الزيانية المالكة قد عرفت تفككا بين الإخوة من جهة وبين الأب وأبنائه من جهة أخرى وكلا الجهتين قد اختارتا قوة خارجية حسب الميول والمصلحة، فأي مستقبل للمملكة التلمسانية على ضوء هذه المستجدات الخطيرة؟

تحرك جيش تلمسان والتقى بجيش خير الدين بمنطقة الجزائر العاصمة، ودارت المعارك بينهما وكان النصر حليف الأتراك العثمانيين[28]، وعاد السلطان عبد الله وأمامه سوى خيار الخضوع لخير الدين بربروس، فأرسل إليه بعض أعيان تلمسان، يطلبون منه العفو والسلام، ودفع ستين ألف دوكة التي اشترطها على السلطان، والزيادة في مقدار اللزمة السنوية لتصل إلى عشرين ألف دوكة، كما يدفع السلطان ضرائب إضافية في شكل خيول وعبيد سود وأقمشة رفيعة.

كان موقف خير الدين من شروط السلطان هو القبول وكإشارة لعفوه أرسل له قفطانا ثم توجه لإخضاع شقيق أحمد القاضي الثائر في الشرق الجزائري وقد نجح في ذلك وكلفه ذلك سنتين من المطاردة والغياب عن مدينة الجزائر[29].

في خضم تصاعد خطر خير الدين في البحر المتوسط والسلطان العثماني في البلقان، طلب ملك المجر، المحاصر بقلعته، النجدة العسكرية من الملك الاسباني شارلكان فطلب هذا الأخير المشورة من وزرائه ومستشاريه وبين لهم قلقه من استغلال خير الدين بربروس، انشغال العساكر الاسبانية بمساعدة المجر لتنفيذ حملته ضد اسبانيا، فاقترح عليه رئيس وزرائه باللجوء إلى إثارة الاضطرابات بداخل الجزائر، قصد إلهاء خير الدين وقواته، ومن ثمة تأمين الأراضي الاسبانية من أي غزو عسكري تركي، وذلك من خلال استمالة سلطان تلمسان عبد الله وإغداقه بالمال شريطة إعلان الحرب ضد خير الدين.

وافق الجميع على مشروع الوزير الأول الاسباني باستثناء شارلكان الذي راوده الشك والتردد بشأن نجاح المشروع العسكري، إلا أن جموع الوزراء بينوا لملكهم أن خير الدين سيخرج بنفسه لمحاربة سلطان تلمسان لأن ثورة عبد الله -الذي لولا خير الدين لما كان سلطانا- ستصدمه نفسيا ولا يعد يثق بأحد. وحينها اقتنع الملك الاسباني بجدية الفكرة فأمر بالاتصال بسلطان تلمسان وتركيز العمل معه للمرور إلى الخطوة الثانية وهي إشعال فتيل الحرب بالجزائر[30].

في أثناء زيارة خير الدين للسلطان العثماني باستنبول، أرسل شارلكان-ملك اسبانيا- أحد أعوانه إلى سلطان تلمسان عبد الله وعرض عليه أموالا تكفيه لخوض حرب برية ضد خير الدين بربروس بالجزائر العاصمة في حين أن الاسبان يحاصرون المدينة بحرا، وبعد السيطرة على مدينة الجزائر، تصير جزءا من مملكة تلمسان وتحت سلطة مولاي عبد الله في إطار استرجاع ميراث أسلافه الزيانيين.

أعجب سلطان تلمسان بمشروع الملك الاسباني وأخذ يتشوق لاسترجاع مدينة الجزائر وما جاورها وقرر خوض حرب ثانية ضد خير الدين، فشرع في جمع جيشه و تعبئة عرب الصحراء ونصب الأخبية خارج مدينة تلمسان. أما ملك اسبانيا فقد جهز أربعة عشر سفينة حربية ورست بخليج رشغون غير بعيد عن مدينة تلمسان[31].

لما علم خير الدين بما يخطط ضده، أمر بإرسال إحدى مراكبه البحرية التي تسير بالتجديف لاستطلاع عدد سفن الأسطول الاسباني، على أن لا تتجاوز المهمة مدة عشرة أيام. وفي أثناء ذلك انطلق جيش تلمسان من مختلف أنحاء المملكة -وكان للقبائل العربية حضورا قويا في هذه الحملة- ونزل بمنطقة البليدة القريبة من الجزائر العاصمة، فسارع أحد الشيوخ العرب وأعلم خير الدين بوصول جيش سلطان تلمسان عبد الله، فلم يكن بوسع خير الدين سوى الاستعداد للخروج ومقابلة الجيش الغازي بالبليدة، فأمر حامياته العسكرية المنتشرة في مناطق نفوذه بالاقتراب منه ومنع رياس البحر من مهاجمة الأسطول الاسباني في مياه رشغون وطلب منهم الانضمام إليه، وجرت المعركة بين جيش خير الدين وجيش مولاي عبد الله الذي انهزم مجددا بفعل انسحاب القبائل العربية من المعركة لعوامل تبقى مجهولة[32] لكننا نعتقد أن عامل المصلحة كان وراء الانسحاب.

قرر خير الدين بربروس، ملاحقة مولاي عبد الله، ومحاصرة مدينة تلمسان، فخيم قرب أسوارها، وعندئذ رأى السلطان الزياني ضرورة مفاوضته، فبعث إليه كبار دولته، وأعيان المدينة، يعرضون عليه السلام مقابل دفع ثلاثين ألف دوكة ذهبية.

صمت خير الدين أمام إلحاح المفاوضين التلمسانيين ثم قال لهم: "هذا الرجل فاقد للايمان والشريعة، ولا يمكننا الوثوق بقسمه وعهده، فتارة يتخلى عن نزواته، وتارة أخرى يتحالف مع النصارى، وإني أراه، لا يكف عن حمل السلاح ضدي، ولا أستطيع مساعدته في أية تسوية"[33].

عاد المفاوضون إلى مولاي عبد الله بجواب يبعث على القلق، لكن سلطان تلمسان كان يدرك جيدا مدى سماحة خير الدين فقصده بنفسه إلى مخيمه، وترجاه وألح عليه، فنال عفوه، ورجع الاثنان إلى مقر حكمهما.

أما أسطول الملك الاسباني شارلكان فقد تلقى خبر انتكاسة حليفه مولاي عبد الله وانشغل بحملته لإنقاذ ملك المجر من الحصار التركي بقيادة سليمان القانوني، لكنه رجع على أعقابه بعدما سمع أن القلعة التي كان من المفترض أن يحررها قد سقطت بيد الأتراك العثمانيين[34].

خاتمة: في سنة 1546م توفى خير الدين بربروس متأثرا بالحمى تاركا مملكة تلمسان تحت إمرة مولاي عبد الله، ومدينة الجزائر تحت حكم ابنه بالتبني، حسن بربروس الذي وصله لقب أمير أمراء الجزائر (بايلرباي) وحمل على عاتقه الدفاع عن تلمسان ومناطق نفوذها من الاسبان المحتلين لوهران والمرسى الكبير وأعوانهم من القبائل الجزائرية من جهة والجيش الفاسي المغربي من جهة أخرى، بمشاركة سلطان تلمسان، مولاي عبد الله وشقيقه الأمير عبد الرحمن[35].

وبوفاة خير الدين بربروس ينتهي مسلسل الإخوة بربروس لكن لم ينته مسلسل الصراع بين الأتراك العثمانيين وبني زيان بمملكة تلمسان، وكل ما يمكن استنتاجه على ضوء ما سبق أن السلطان أبو حمو الثالث طيلة فترة حكمه كان دائما وفيا لتحالفه مع الاسبان الموقع سنة 1518م، أما السلطان المسعود فقد لعب على الحبلين إذ راح يستنجد بخير الدين للإطاحة بشقيقه أبي حمو الثالث ولما بلغ أمانيه انقلب على الأتراك وتحالف مع الاسبان وبشأنه لا حظنا أن أبا راس الناصري قد اختلطت عليه الحقائق حيث يصف أحداثا تاريخية لأبي حمو الثالث ضد عروج، لكنه ينسبها للمسعود، ولا ندري مصيره بعد سجنه بتلمسان. وفيما يتعلق بالسلطان عبد الله فقد لاحظنا أنه انقلب على خير الدين مرتين كما انقلب على الاسبان كذلك، وبخصوص سياسته، لاحظ الرواد الفرنسيون للجمعية التاريخية الجزائرية أنها سياسة مغايرة لسابقيه حيث تعامل مع الطرفين على السواء، الأتراك من جهة والاسبان من جهة أخرى سعيا منه إلى تصفية الخصمين وبسط سيادته على كامل التراب الجزائري[36].

الهوامش:

(1) وهم عروج وخير الدين واسحاق من جزيرة مدلي، والدهم تركي مسلم، ووالدتهم نصرانية.

(2) بربروس لفظة روسية تعني اللحية الحمراء.

(3) عروج أصلها أوروج وتعني الصيام أو رمضان.

(4) يذكر المؤرخ التركي التر Ilter أن عروج نصب أولا أبو زيان سلطانا لتلمسان ثم عزله وأعدمه وأعلن نفسه حاكما للبلد.

(5) Sinan chaouch. Fondation de la régence d'Alger –histoire des frères Barberousse Aroudj et khair Ed din- Traduction de jean Michel venture de paradis, éditions grand Alger livres, Alger, 2006.p.74.

وبهذا الصدد تشير الدراسات التاريخية أن العديد من العائلات التلمسانية وعلمائها، استقروا بفاس مما وثق علاقات المودة والإخاء بين التلمسانين والفاسيين.

(6) أعتقد أن المقصود بالفتنة في هذا المقام هو أن بني زيان رغبوا الناس في ملك آل عبد الواد وتهجموا على الترك على منبر الجامع الأعظم.

(7) Sinan chaouch. Op, cit, p.75.
(8) Ibid, pp.75-76.
(9) Ibid, p.77.

(10) أبو راس الناصري. تاريخ الجزائر. مخطوط بالمكتبة الوطنية الفرنسية، رقم 4614، ورقة 135ظ.

(11) Sinan Chaouch, op, cit, pp.77-78.

(12) بوشنافي محمد. " مساهمة عروج بن يعقوب في مواجهة الخطر الاسباني على المغرب الأوسط". مجلة عصور، العددان 04-05، وهران، جوان 2004، ص 275.

(13) Sinan Chaouch, op, cit, p.83.
(14) Ibid, pp.99-100.
(15) Ibid, pp.100-101.
(16) Ibid, p.102.

(17) أبو راس الناصري. المخطوط السابق، ورقة 135 و.

(18) Sinan Chaouch, op, cit, p.103.
(19) Ibid, p.104.
(20) Ibid, pp.105-106.
(21) Ibid, pp. 108-110.
(22) Ibid, p.114.
(23) Ibid, p.115.

(24) احتل الاسبان مدينة بجاية المحصنة سنة 1510، وحاول الإخوة بربروس تحريرها سنة 1515 لكنهم فشلوا وفيها أصيب عروج برمية مدفعية أدت إلى بتر ذراعه اليمنى.

(25) Sinan Chaouch, op, cit, p.139.
(26) Ibid, p.140.
(27) Ibid, p.141.

(28) يعكس هذا الانتصار العسكري لخير الدين وجيشه إلى ضعف الجيش التلمساني من حيث التنظيم والتدريب والتجهيز ولذلك كانت المملكة التلمسانية تبحث دائما عن قوة خارجية تسندها، فأجبرتها سوء الأحوال والمصلحة إلى اختيار الاسبان كقوة عسكرية في الحوض الغربي للبحر المتوسط.

(29) Sinan Chaouch, op, cit, pp.142-143.
(30) Ibid, p.170.
(31) Ibid, p.171.
(32) Ibid, p.172.
(33) Ibid, p.173.
(34) Idem.

(35) إلتر، عزيز سامح. الأتراك العثمانيون في افريقيا الشمالية. ترجمة محمود علي عامر، دار النهضة العربية، بيروت، الطبعة الأولى 1409هـ/1989م، ص 180.

(36) Chantal de la Vérone." Deux lettres inédits d'un roi de Tlemcen 1531-1532". In Revue Africaine, Année 1955, p.174.